ملامح الجهود اللغوية للفلاسفة والأصوليين العرب في عصر الدولة العباسية

FEATURES OF THE LINGUISTIC EFFORTS OF ARAB PHILOSOPHERS AND FUNDAMENTALISTS IN THE ERA OF THE ABBASID STATE

د. عبد الرحمن بن حسين قاسم مُحَمَّد*

ABSTRACT:

The research traces the most prominent efforts of philosophers and fundamentalists in the era of the Abbasid state, in which the culture of the Arabs was influenced by Greek culture, which is based on philosophy and logic, and paves the way for this by explaining the reasons for resorting to language in philosophy and origins, and clarifying the basis on which it is relied to establish a linguistic work in a case, then it determines Sections of the efforts of philosophers and fundamentalists in language first, then the most prominent of their scholars and efforts in the field of the origin of language, and the differences of scholars on how Adam, peace be upon him, came to pronouncing it, and mentioning their rational and textual evidence for their opinions, in contrast to the opinion of scholars who suggested that language was originated by moderation and convention, and then in the field of The formulation of words and

* خريج من مرحلة الدكتوراة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، جدة–المملكة العربية السعودية وأستاذ مساعد سابق في كلية العلوم الإسلامية، جامعة ماردين أرتوكلو–تركيا

their divisions with regard to the terms (speech) and (the word), then in the field of various linguistic methods such as questioning, wondering, wishing and others, then in the field of semantics and their types, limiting them to the positive verbal connotation, and dividing them into three sections: congruent indication, implied indication, and commitment indication. In the conclusion, he explains how the fundamentalists and philosophers invested linguistic efforts in their books, the most prominent results of the linguistic efforts they presented to us, and the aspects of convergence and differences between the efforts of philosophers and the original Leyen, and between them and the linguists.

KEYWORDS: Philosophy, Origins, the Abbasid state, the origin of the language, types of significance, wording.

الكلمات المفتاحية: فلسفة، أصول، الدولة العباسية، نشأة اللغة، أنواع الدلالة، صياغة الألفاظ.

ملخص البحث:

يقوم البحث بتتبُّع أبرز جهود الفلاسفة والأصوليين في عصر الدولة العباسية الذي تأثرت فيه ثقافة العرب بالثقافة اليونانية، القائمة على الفلسفة والمنطق، ويمهد لذلك ببيان أسباب الاحتكام إلى اللغة في الفلسفة والأصول، وبيان الأساس الذي يعتمد عليه لإقامة عمل لغوي في قضية ما، ثم يقوم بتحديد أقسام جهود الفلاسفة والأصوليين في اللغة أولًا، ثم أبرز أعلامهم وجهودهم في مجال نشأة اللغة، واختلاف العلماء في كيفية توصل آدم عليه السلام إلى النطق بها، وذكر أدلّتهم العقلية والنقلية على آرائهم مقابل رأي العلماء الذين رجحوا أن اللغة قد نشأت بالمواضعة والاصطلاح، ثم في مجال صياغة الألفاظ وتقسيماتها

بالنظر إلى مصطلحي (الكلام) و(الكلمة)، ثم في مجال الأساليب اللغوية المتنوعة كا لاستفهام والتعجب والتمني وغيرها، ثم في مجال الدلالة وأنواعها، واقتصارهم على الدلالة اللفظية الوضعية، وتقسيمها ثلاثة أقسام: دلالة مطابقة، ودلالة تضمُّن، ودلالة التزام، وفي الخاتمة يوضح كيف استثمر الأصوليون والفلاسفة الجهود اللغوية في مؤلفاتهم، وأبرز نتائج الجهود اللغوية التي قدموها لنا، ووجوه التقارب والاختلاف بين جهود الفلاسفة والأصوليين، وبينهم وبين اللغويين.

مقدمة:

هذا عمل بحثي بعنوان "ملامح الجهود اللغوية للفلاسفة والأصوليين العرب في عصر الدولة العباسية" أعرض فيه مسائل دراسة اللغة وفلسفتها لدى فلاسفة اللغة والأصوليين الذين قدموا ثمرة أعمالهم في خدمة أصول الفقه وأصول النحو والبلاغة والحديث في ذلك العصر؛ فقاموا بوضع المصطلحات الفكرية والعلمية، وحددوا أُطُرها، ثم جعلوها قالبا لغويًّا لجهودهم العلمية المتنوعة.

وهو بوابة علمية إلى الكشف عن وجه تلاقي هذه الجهود مع ما تلاها من جهود العلماء اللاحقين في مجال اللغة، الذين جعلوا القضايا اللغوية ركيزة من ركائز عملهم، فقدموا منها نموذجا عمليًّا لتطبيقاتهم وأحكامهم. وفيما يأتي عرض لعناصر خطة هذا البحث، وأهم نقاطها:

أهمية البحث:

عندما يتركز البحث على الجهد اللغوي الخالص لأحد علماء اللغة فإن الأمر قد لا يتجاوز مسألة إبراز إسهامه في مجال اللغة، وتفعيل دور مؤلفاته وكتاباته وأطروحاته في خدمة اللغة حسب المسار اللغوي الذي ارتضاه.

أما أولئك الذين أخذوا بناصية اللغة إلى مسار العلوم الفلسفية والفقهية والبلاغية وغيرها فهم قوم أرادوا أن يقيموا للقواعد والنظريات والأسس مجسمات علمية بارزة للعيان، بإمكان القارئ أن يميز فيها دور العامل من المعمول، والتابع من المتبوع، والقوي من الضعيف.

وتأتي أهمية هذا البحث من خلال الكشف عن آلية العمل التي اشتغل بها أولئك العلماء وا لفلاسفة، وفعلوها في كتبهم وعلومهم، فأنتجوا منها قضايا ومسائل وأفكارا علمية شتى.

مشكلة البحث:

أهم ما يعالجه الباحث هو الكشف عن تلك الأدوات اللغوية التي كان يعمل بها كل عالم أو فيلسوف في العصر العباسي عندما طرق باب العمل اللغوي.

موضوع البحث:

ملامح الجهود اللغوية المتناثرة في ثنايا كتب الفلاسفة وعلماء الأصول في العصر العباسي، التي كانت وسيلة إلى إقامة معيار علمي أو تحديد مفهوم أو مصطلح، أو إثبات قضية أو نفيها، أو ترتيب قضايا العلم، أو تفريعها، ونحو ذلك.

أهداف البحث:

1 ـ إبراز قيمة البحوث اللغوية في مجالات العلم المختلفة.

2 ـ ربط الجهود اللغوية المتناثرة ببعضها من خلال إعادة ضمها إلى الأصل الذي نشأت منه.

3 ـ تحديد مدى خدمة هذه الجهود للغة، ومدى تأثيرها في مسائلها وقضاياها.

4 ـ إبراز أثر هذه الجهود في العلوم التي قامت بها.

5 ـ تعرف أعلام هذه الجهود وآثارهم العلمية في العصر العباسي.

تساؤلات البحث:

1 ـ ما أسباب الاحتكام إلى اللغة في مجالات العلم والفلسفة؟

2 ـ ما الأساس الذي يعتمد عليه لإقامة عمل لغوي في قضية ما؟

3 ـ ما أقسام الجهود اللغوية للفلاسفة والأصوليين في العصر ألعباسي؟

4 ـ ما أبرز الجهود في مجال نشأة اللغة؟

5 ـ ما أبرز الجهود في مجال صياغة الألفاظ وتقسيمها؟

6 _ ما أبرز الجهود في مجال الأساليب اللغوية؟

7 _ ما أبرز الجهود في مجال الدلالة وأنواعها؟

8 _ كيف استثمر الأصوليون والفلاسفة الجهود اللغوية في مؤلفاتهم؟

9 _ ما أبرز نتائج الجهود اللغوية التي قدمها لنا الأصوليون والفلاسفة؟

10 _ ما وجوه التقارب والاختلاف بين جهود الفلاسفة والأصوليين، وبينهم وبين اللغويين؟

الدراسات السابقة:

هذا البحث حلقة في سلسلة تهتم بتقويم الجهود اللغوية لدى الفلاسفة والأصوليين في العصر العباسي، وكل ما يتصل بهذا الموضوع من مؤلفات أو أطروحات أو بحوث فهو مما يحسب من الدراسات السابقة التي ينبغي الوقوف عليها، والإفادة منها، وتشمل هذه الدراسات:

1 _ علاقة المنطق باللغة عند فلاسفة المسلمين، لـ د. حسن بشير صالح، وهو من المتتبعين لجهود الفلاسفة المسلمين في المقام الأول في كتابه، مع ربط بينهم وبين اللغويين وبعض الأصوليين.

وسيكون بينه وبين بحثي تكامل من حيث مداومة النظر والمراجعة والتتبع لما سجلته المصادر التراثية من جهود الفلاسفة والأصوليين.

2 _ التصور اللغوي عند علماء أصول الفقه لـ د. السيد أحمد عبد الغفار، وهو ممن رصدوا خلاصة الأعمال اللغوية للأصوليين المشتغلين بالفقه، وربط بينها وبين جهود اللغويين، وهو من المراجع المهمة لبحثي، الذي تتسع دائرته لعلماء أصول الفقه وأصول الحديث، والعلماء المشتغلين بالدلالة وقضاياها.

منهج البحث:

يعتمد الباحث طريقة التتبع الزمني للجهود المحفوظة للفلاسفة واللغويين في العصر العباسي بدءا بالأقدم فمن بعده، مع عمل تحليلي مصاحب لعرض هذه الجهود؛ ليتيسر فيما بعد

استنباط الفوائد والأحكام الخاصة بها.

مجال الدراسة وحدودها:

الجهود اللغوية من مصادر الفلسفة والأصول في الفقه والنحو والحديث في العصر العباسي، وما يتناول هذه المصادر بالبحث والدراسة من المراجع الحديثة.

تبويب الدراسة:

مقدمة

تمهيد:

1- أسباب الاحتكام إلى اللغة في الفلسفة والأصول.

2- الأساس الذي يعتمد عليه لإقامة عمل لغوي في قضية ما.

المبحث الأول:

أقسام الجهود اللغوية للفلاسفة والأصوليين في العصر العباسي

المبحث الثاني:

أبرز جهود الفلاسفة والأصوليين في مجال نشأة اللغة

المبحث الثالث:

أبرز جهود الفلاسفة والأصوليين في مجال صياغة الألفاظ وتقسيماتها

المبحث الرابع:

أبرز جهود الفلاسفة والأصوليين في مجال الأساليب اللغوية

المبحث الخامس:

أبرز جهود الفلاسفة والأصوليين في مجال الدلالة وأنواعها

خاتمة:

1- كيف استثمر الأصوليون والفلاسفة الجهود اللغوية في مؤلفاتهم؟

2- أبرز نتائج الجهود اللغوية التي قدمها لنا الأصوليون والفلاسفة.

3- وجوه التقارب والاختلاف بين جهود الفلاسفة والأصوليين، وبينهم وبين اللغويين.

تمهيد:

اللغة هي الأداة التي تنقل إلينا المعلومات والأفكار التي توصل إليها المفكرون والفلاسفة والأدباء وأصحاب التوجهات العلمية المختلفة، وهي مفتاح قراءة جهودهم، وإدراك مقاصدهم التي بذلوا من أجل بلوغها أوقاتهم وأعمارهم، وخاضوا فيها باتجاهات شتى، وتبنوها ضد خصومهم، ودفع بعضهم ثمن كلماته من حريته ودمه وماله.

فإذا كانت الحال على هذا النحو فإن منزلة اللغة عند العلماء والمفكرين والفلاسفة لا يمكن أن تتصور إلا في المرتبة الأولى من الاهتمام والعناية.

وعندما يبدأ الفيلسوف والأصولي في شرح أفكاره، وتقعيد قواعده الفكرية والفقهية والأصولية عموما فإن محددات مفاهيمه لا بد أن تصاغ بلغة سليمة ناصعة، لا سيَّما وهو يجتهد في تمييز الأصول بعضها من بعض كيلا تتداخل، ثم يميز الفروع كذلك، ويمضي في عطائه اللغوي حتى يطمئن إلى سلامة التعبير عن مقاصده، ووضوح المراد من نظرياته وعباراته.

ولكي تتبين لنا الأسس التي يبنى عليها الجهد اللغوي للفلاسفة والأصوليين في العصر العباسي، فإننا نستشف مما قدموه إلينا أهم مقومات هذه الجهود، وهي:

1 ـ المقدرة اللغوية الملائمة لصياغة المصطلحات، وتحرير التعريفات والحدود، والتمييز بين المتشابهات، وتفسير غريب الألفاظ والعبارات.

2 ـ الإدراك العلمي العميق لقضايا العلم أو الفن الذي ينتمي إليه الفيلسوف أو الأصولي، الذي يمكنه من تطويع أدوات اللغة ومفرداتها لتكون قالبا ملائما لما يريد أن يقدمه إلينا.

3 ـ الاتجاه التأصيلي والتقعيدي والتحليلي في مجال الفن، الذي يميز بين المشتغلين بالنواحي الإجرائية والتنفيذية، والمهتمين بفلسفة البناء الذي يقوم عليه هذا الفن.

4 ـ النظرة العلمية الموازنة بين قضايا الفن المختلفة؛ بحيث يكون التأصيل قائما

على مراعاة الفوارق العلمية بينها، وما يتبع ذلك من قضايا ومسائل.

5 ــ الحاجة إلى وضع قواعد منهجية وأصولية للفن، إذا شعر المشتغلون به بتغيُّر قد يفضي إلى خلط في قضاياه ومسائله، ويضيع ثمرة عمل أعلامه، وكذلك إذا وضعوا نصب أعينهم أن يعملوا على انتشاره وتوسع مجال البحث فيه.

ومن ذلك يتبين لنا أن اللغة بما تتضمنه من أساليب وعبارات وألفاظ وأصوات تمثل أداة قياس لدى الفلاسفة والأصوليين يعرفون بها مقدار ضبطهم لفنهم، وتجليتهم لمسائله وقضاياه، وقدرتهم على وضع مقياس علمي أو فلسفي للفن فيما ينبغي أن يكون عليه.

ولولا اللجوء إلى التأصيل اللغوي لوجدنا مصطلحات الفن الواحد تتباين، وحدوده ومسائله تتفاوت في مقدارها وكيفيتها، ثم يصعب بعد ذلك على أهله أن يسيروا على سنن السابقين فيه، وربما ضاع منه ما لم تتداركه يد التأصيل والتقعيد المعتمد على اللغة.

وإن من هذه الجهود ما عمد صاحبه إلى مراجعة قضايا اللغة نفسها، ومحاولة تحليل قضاياها، وتفسير غوامضها ومبهماتها؛ سعيا من وراء ذلك إلى سلامة البناء التأصيلي للفن الذي يقوم به، وانسجام مصطلحاته وحدوده مع حدود اللغة وقواعدها.

المبحث الأول:أقسام الجهود اللغوية للفلاسفة والأصوليين في العصر العباسي:

الجهود اللغوية التي كانت ثمرة أعمال الفلاسفة والأصوليين انقسمت أقساما عدة، كانت فيها متأثرة بمدى الاهتمام بالظاهرة اللغوية، ومدى حاجة أهل الفن إلى مراجعة حال اللغة، وخدمة قضاياها؛ ليسهل عليهم بعد ذلك الربط بينها وبين فنهم الذي يشتغلون به، ومما أسهم الفلاسفة والأصوليون في خدمته من قضايا اللغة:

1 ــ البحث في نشأة اللغة، والآراء التي تشعبت حولها، ومحاولة تقديم رأي أقرب إلى الإقناع باعتماد الأدلة الشرعية حينا، والأدلة المنطقية حينا آخر، ومن الذين أسهموا في هذا المجال العلامة ابن فارس (ت395هـ)، وابن حزم الظاهري (ت456هـ)، والإمام الغزالي (ت505هـ)، والرازي (ت606هـ).

2 ــ البحث في مجال صياغة الألفاظ وتأليف الكلمات، ومعرفة أصولها من زوائدها، وحروفها المنقلبة من الأصلية، مما يتعلق بعلم الصرف في اللغة، ومن الذين اعتنوا

بهذا الأمر ابن جني (ت392هـ)، وابن سينا (ت427هـ).

3 ـ البحث في أساليب اللغة، وضروب الكلام، والتفريق بين أحوال المخاطبين، ومراعاة أحوال المتكلم، وما يتصل بذلك، ومن أبرز القائمين بهذا الأمر الفراء (ت207هـ)، والزمخشري (ت538هـ)، وعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)، والإمام الغزالي.

4 ـ البحث في دلالة الكلمات، وأنواعها، ومدى صلة اللفظ بالمعنى، وهو بحث نجده عند الإمام الشافعي، والفارابي (ت339هـ)، وابن جني، وابن سينا، والإمام الغزالي، وعموم المفسرين وشرَّاح الحديث النبوي.

وقد انتهج كثير من الأُصوليين الذين أتوا في حقبة ما بعد التأصيل الأول للعلم طريقةَ التحليل اللغوي لما سبقهم من جهود أهل الفن الأوائل، فكانت اللغة أداتهم الأولى في الإبانة عن قيمة أعمالهم، وتقريبها إلى طلاب العلم من بعدهم.

ومن الأصوليين اللاحقين من قام بتخريج الفروع الفقهية على المسائل النحوية، كجمال الدين الإسنوي (772هـ)؛ فكان يأتي بالباب النحوي في مسألته، ثم يذكر ما يتفرع عنها من مسائل الفقه، وذلك كما نرى في المسألة السابعة من كتابه عندما يقول: "ضمير الغائب قد يعود على غير ملفوظ به، كالذي يفسره سياق الكلام، فمن فروع المسألة: ما إذا قال: عليَّ درهم ونصفه، فإنه يلزمه درهم كامل ونصف، والتقدير كما قاله ابن مالك: ونصف درهم آخر، إذ لو كان عائداً إلى المذكور لكان يلزمه درهم واحد، ويكون قد أعاد النصف تأكيداً، وعطفه لتغاير الألفاظ"[1].

المبحث الثاني: أبرز جهود الفلاسفة والأصوليين في مجال نشأة اللغة:

نشأة اللغة من الأمور التي لم يحسمها العلم البشري، وتضاربت فيها الآراء، وتعددت الافتراضات والتعليلات، وكان للفلاسفة طريق إلى الاجتهاد فيه من حيث الحرص على معرفة أصل اللغة، وكيف نشأت وتطورت إلى أن أصبحت لها تراكيب وأساليب ودلالات،

[1] انظر: الكوكب الدري في تخريج الفروع الفقهية على المسائل النحوية للإسنوي 90 – 91.

وهو أمر لا بدَّ من الخوض فيه عندما تجري مراجعة وضع بعض الألفاظ في اللغة، وعندما نجد دلالة بعض الألفاظ قريبة من لفظها، وبعضها غير ذلك، فلماذا لا نحاول مراجعة تاريخ البشرية من أول يوم أنطقها فيه الله تعالى لنعرف كيف أوتيت هذا البيان؟

نبدأ تتبع هذه المحاولات بما نجده عند العلامة ابن فارس الذي يقول: إن لغة العرب توقيف، وإن الله تعالى قد وقَّف آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه في زمانه، وانتشر من ذلك ما شاء الله، ثم علَّم بعد آدم عليه السلام من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم نبيًّا نبيًّا ما شاء أن يعلمه، حتى انتهى الأمر إلى نبينا مُحَمَّد ﷺ، فآتاه الله عز وجل من ذلك ما لم يؤته أحدًا قبله، تماما على ما أحسنه من اللغة المتقدمة، ثم قرَّ الأمر قراره، فلم تَعلَم لغةٌ من بعده حدثت[1].

أما ابن جني فينقل لنا رأي أستاذه أبي علي الفارسي (ت377هـ) أن اللغة من عند الله، كما جاء في الآية الكريمة: (وعلَّم آدمَ الْأَسْماءَ كُلَّها) [البقرة:31]، في حين يرى ابن جني أن أصل اللغة –كما ينقل عن أكثر أهل النظر – تواضع واصطلاح، ويؤول هذه الآية بأن الله تعالى أقدَر آدم عليه السلام على وضعها[2].

وذهب الإمام الغزالي إلى أن القول بالتوقيف صحيح، من حيث أن الله خلق الأصوات والحروف، وخلق العلم بدلالتها على المسميات المختلفة، وهي مقدرة للخالق لا يمكن إنكارها، وقَبِل القول بالاصطلاح، من باب أن الله تعالى يوفق جمعا من العلماء للاشتغال بها، ويلهمهم وضع الألفاظ الدالة على الأمور الغائبة التي لا يتمكن الإنسان من الوصول إليها، فيبدأ أحدهم، ثم يتبعه آخر، وبذلك يتم الاصطلاح، وكلٌّ هذا إنما يقع في دائرة الافتراض المفتقر إلى البرهان[1].

ومن الأصوليين القائلين بالتوقيف فخر الدين الرازي، وابن حزم الظاهري، ومن الفلاسفة

---

[1] انظر: الصاحبي في فقه اللغة 6 – 7.

[2] انظر: الخصائص لابن جني 51/1.

[1] انظر: المستصفى من علم الأصول للغزالي 319/1.

رأي إخوان الصفا، الذين أدخلوا عمل الطبيعة في نظرية التوقيف فقالوا: "إن الله ألهم عطارد صاحب المنطق النطق، ونطقت حواء، وعلم الله آدم الأسماء كلها، فصار يعرفها ويلقي على كل جنس وشكل ونوع وشخص من النبات والمعادن والحيوان وجميع المرئيات الأسماء والصفات، ثم تعلَّم أبناء آدم منه"[2].

وقد اعتمد القائلون بالتوقيف على دليل نقلي، ودليل عقلي، فالدليل النقلي هو ما نجده من قول الله تعالى: (وعلَّم آدمَ الْأَسْماءَ كُلَّها) [البقرة:31]، وما يدل عليه قوله تعالى: (إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ) [النجم:23]؛ فقد ذَمَّ اللهُ مَن وضعها من غير دليل ولا توقيف، والدليلَ العقَلي يتمثَّل في ادعاء حق المواضعة والاصطلاح للمتأخرين، وعدم قصره على المتقدمين من علماء اللغة، بالإضافة إلى النظر في تكوين هذه اللغة، وما تمتاز به من قوة بيان، ومتانة بنيان، مما لا يكون في استطاعة البشر أن يأتوا بمثله[3].

– أما القائلون بالمواضعة والاصطلاح فنجد من أوائلهم الفارابي الذي يعتقد أن اللغة بدأت بالإشارات؛ باعتبارها أقرب شيء للإنسان يلتمس بها ما يريد، وهي غير كافية للإفهام، فاستعملت الأصوات، وحلت محل الإشارة[4].

وبعد ذلك يستطيع من استعمل هذه الأصوات أن يضعها في نظام مقطعي تأتلف فيه الكلمات للتعبير عن معنى ما، يكون في البداية ناتجا من عالم المحسوسات، ثم يتطور إلى التعبير عن معقولات تستند إلى محسوسات يمكن أن يشار إليها[5].

---

[2] انظر: المزهر في علوم اللغة للسيوطي 21/1، والإحكام لابن حزم 29/1، ورسائل إخوان الصفا 112/3، وعلاقة المنطق باللغة عند فلاسفة المسلمين لـ د. حسن صالح 115– 117.

[3] انظر: علاقة المنطق باللغة 119– 122، والتصور اللغوي عند علماء أصول الفقه للسيد أحمد عبد الغفار 45.

[4] انظر: الحروف للفارابي، تحقيق محسن مهدي 135.

[5] المصدر السابق 136، وانظر: علاقة المنطق باللغة 125.

ويرى ابن جني أن اللغة قد نشأت من محاكاة أصوات الطبيعة، كخرير الماء، وحنين الرعد، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، كما رأى في تناقل اللغات واختلافها مواضعة أيضا، وذلك بأن يقوم أهل كل لغة باختيار مسميات، ثم يغيرونها بمسميات أُخر[1].

وينقل عن أبي الحسن الأخفش (ت215هـ) أن اختلاف لغات العرب إنما جاء من قبل أن أول ما وضع منها وضع على خلاف، وإن كان مسوقًا على صحة وقياس، ثم أحدثوا بعده أشياء كثيرة للحاجة إليها، غير أنها على قياس ما كان وُضع في الأصل مختلفًا[2].

وكذلك يرى ابن النديم (ت384هـ) أن اللغة العربية لسان حِمَير، وطسم، وجديس، وإرم، وأن إسماعيل عليه السلام حينما نشأ في الحرم وتزوج من بني جرهم تعلم كلامهم، ثم إن ولده أخذوا يشتقون الكلام بعضه من بعض، ويضعون للأشياء أسماء كثيرة بحسب حدوث الأشياء والموجودات[3].

ويرى الغزالي أن المواضعة قد تمت بواسطة انقداح وجه الحاجة للعاقل، وإمكان التعريف بتأليف الحروف، فيقوم بالوضع، ثم يعرف الآخرين بالإشارة والتكرار معها للفظ مرة بعد أخرى، كما يفعل الوالدان بالولد الصغير، وكما يعرف الأخرس ما ضميره بالإشارة[4].

وقد استدل القائلون بالمواضعة والاصطلاح بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:4]، فاللغة سابقة لإرسال الرسل، والرسل جاؤوا بلغة القوم الذين أرسلوا إليهم، وفي ذلك تأكيد على الاصطلاح في اللغة دون التوقيف[5].

واستدلوا بأن خلق العلم الضروري في العاقل لم يكن ليخلق لو كانت اللغة توقيفية، وهو الذي يستلزم معرفة الله بالضرورة لا بالاستدلال، ولا يجوز أن يخلق العلم الضروري في غير

---

(1) انظر: الخصائص 54 – 55.

(2) انظر: المزهر 55/1 – 56.

(3) انظر: الفهرست لابن النديم 13.

(4) انظر: المستصفى للغزالي 319/1–320.

(5) انظر: علاقة المنطق باللغة 129.

العاقل؛ لاستحالة معرفته معرفة مفصلة ودقيقة[6].

واستدلوا أيضا بأن اللغة لا تدل على معانيها بالدلالة العقلية، وإنما بالدلالة الوضعية، فيجوز تعدد اللغات، واختلاف الدلالات والألفاظ الدالة عليها[1].

ومما مضى نخلص إلى القول بأن الرأيين قد قدَّما تصوُّرا منطقيًّا لما يمكن أن تكون عليه نشأة اللغة، ومع فقدان الدليل القاطع على ترجيح أحدهما على الآخر فإن خلاصة هذه الجهود تكمن في محاولة تقريب هذه الفرضية إلى أقرب مستند نقلي وعقلي، مع تفاوت ملحوظ في قوة الحجج، ليس بإمكانه أن يفضي إلى إسقاط الرأي المخالف.

ويذهب د. علي وافي إلى أن هذين الرأيين مردودين؛ أما الأول فلعدم الدليل العقلي عليه، وأما الآخر فلعدم الدليل العقلي والنقلي والتاريخي، ويختار أن يكون الرأي القائل بنشأة اللغة من خلال محاكاة أصوات الطبيعة أدنى النظريات إلى الصحة، حتى وإن لم يقم دليل يقيني على صحتها، فليس هناك دليل يقيني على بطلانها[2].

المبحث الثالث: أبرز جهود الفلاسفة والأصوليين في مجال صياغة الألفاظ وتقسيماتها:

يبدأ الكلام عن الألفاظ في هذه المسألة بنظرة الأصوليين إلى مصطلحي (الكلام) و(الكلمة)، فهم يجعلون الكلام مضادًّا للخرس والسكوت، والكلمة المفردة في ذلك كالجملة، بينما يعتبر اللغويون الكلمة واحدة الكلام، وقد يراد بها الكلام بالنظر إلى مضمونها، وفي بيان حجة الأصوليين يشير الفخر الرازي إلى أنهم جعلوا اتفاق العقلاء على أن الكلام ضد السكوت ينطبق على الكلمة الواحدة منه، وأن اشتقاق الكلمة من (الكَلْم) وهو الجرح والتأثير، ومن سمع كلمة واحدة يفهم معناها؛ فيحصل التأثير، وتكون كلاما، كما يصح أن يقال: إن فلانا تكلم بهذه الكلمة الواحدة، ويصح أن يقال أيضا: إنه ما تكلم إلا بهذه الكلمة الواحدة، وكل ذلك يدل على أن الكلمة الواحدة كلام، وإلا

---

[6] انظر: المزهر للسيوطي 18/1.

[1] انظر: علاقة المنطق باللغة 130.

[2] انظر: علم اللغة لـ د. علي وافي 97 – 105.

لم يصح أن يقال: تكلم بالكلمة الواحدة، ويصح أن يقال: تكلم فلانٌ بكلام غير تام، وذلك يدل على أن حصول الإفادة التامة غير معتبر في اسم (الكلام)، بخلاف ما يراه اللغويون من شرط الإفادة فيه[1].

أما تأليف الألفاظ وصياغتها فإن مراجعة معنى اللفظ عند الأصوليين توصلنا إلى رأي ابن حزم الظاهري الذي يعرفه بأنه: "هواء مندفع من الشفتين، والأضراس والحنك، والحلق والرئة على تأليف محدود"[2].

وهذا التأليف المذكور في التعريف يوصلنا إلى أن لكل صوت من الأصوات التي يتركب منها اللفظ هيئة مخصوصة، يوضحها كلام ابن سينا عن سبب حدوث الصوت عندما يقول: "أظن أن الصوت سببه القريب تموُّج الهواء دفعة بسرعة وبقوة من أي سببٍ كان"[3].

ويفرق ابن جني بين الصوت والحرف عندما يتعرض لكيفية حدوث كل منهما، فيقول: "اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفًا"[4].

ثم هذه الحروف لها صفات تميزها، فهناك المجهور والمهموس، والشديد والرخو والمتوسط، والمطبق والمنفتح، والمستعلي والمنخفض، والصحيح والمعتل، والساكن والمتحرك، والأصلي والزائد، والمنحرف، والمكرر، والمشرب، والمهتوت، والمذلق والمصمت[1].

المبحث الرابع:أبرز جهود الفلاسفة والأصوليين في مجال الأساليب اللغوية:

بعد أن قدَّم الفلاسفة والأصوليون رؤيتهم للألفاظ وتقسيماتها جاء دور الجمل وتأليفها، ودور كل نوع منها في أداء المعنى، وتمييز المقصود، وهذا الخطوة هي الخطوة ما قبل الأخيرة

[1] انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي 9/1.

[2] انظر: الإحكام 46/2.

[3] انظر: أسباب حدوث الحروف لابن سينا 56.

[4] انظر: سر صناعة الإعراب لابن جني 6/1.

[1] انظر: سر صناعة الإعراب لابن جني 60/1–64.

في سبيل الوصول إلى الدلالة الصحيحة للكلام.

وأبرز المهتمين بالأساليب من اللغويين عبد القاهر الجرجاني قد وضع نظريته على مادة التشريع والتأصيل، ومنطلق التفكير والتأمل الحضاري الإسلامي (القرآن الكريم)، فنجده في دلائل الإعجاز قد أفاض في مسائل التشبيه والاستعارة والكناية، والاستفهام والخبر، والتقديم والتأخير في المسند والمسند إليه، والحذف والذكر، والمجاز، وكل ذلك لا تغيب عنه الشواهد القرآنية الواضحة.

وإذا نظرنا إلى كوكبة المفسرين وجدنا الفراء، والأخفش، والزجاج (ت311هـ)، والنحاس (ت471هـ)، والزمخشري صاحب الكشاف، وهم من أعلام الدراسات اللغوية – القرآنية، ولديهم من الجهود اللغوية ما يمتد امتداد آيات الذكر الحكيم.

وقد اتصلت بهذه الجهود تلك الذخائر الثمينة التي سطرها شراح السنة النبوية في كتب الصحاح والمسانيد، فبرز من بين أعلامها الإمام النووي (ت676هـ)، والإمام تقي الدين السبكي (ت756هـ)، ومحمد بن خلفة الأبي (ت827هـ)، وابن حجر العسقلاني (ت852هـ)، وغيرهم.

وهؤلاء كلهم يحتاجون إلى مقدرة لغوية عظيمة، وفكر تحليلي عميق، يستطيعون به أن يتصدوا لمثل هذه المسائل الشريفة، التي يتهيب الإنسان المسلم أن يقدم عليها إجلالًا لمقامها، واعترافًا بقصوره عن إدراك مداها، اللهم إلا إذا أراد أن يقرب ما بينها وبين أفهام الناس، ويصلها بالأفكار والتأملات.

فمما يتصل بالأساليب اللغوية حديث الفراء عن (إلى) في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ) [البقرة: 258] فهو يجعل وضعها في هذا الموضع على سبيل التعجب، كما تقول للرجل: أما ترى إلى هذا![1].

ويقول الإمام الغزالي: "اعلم أن المعاني إذا ركّبت حصل منها أصناف، كالاستفهام والالتماس والتمني والترجي والتعجب والخبر"، ثم يخصص من ذلك ما يتعلق بالخبر باعتباره

[1] انظر: معاني القرآن للفراء 170/1.

قضية، ولها أقسام وأحكام[1].

المبحث الخامس: أبرز جهود الفلاسفة والأصوليين في مجال الدلالة وأنواعها:

هذا الباب هو الهدف الأكبر للفلاسفة والأصوليين المهتمين باللغة، وهو مصبُّ عنايتهم واهتمامهم؛ ذلك أن البحث فيما يتعلق بظواهر اللغة، وعواملها، وتركيباتها، وأساليب التعبير فيها إنما يقود في نهاية المطاف إلى أثرٍ دلالي مقصود، وقيمة دلالية متميزة.

وارتباط علم الدلالة بالفلسفة والمنطق أكثر من ارتباطه بأي فرع آخر من فروع المعرفة[1].

وقد عرف الفلاسفة الدلالة بأنها: "كون الشيء بحاله يلزم من العلم به العلم بشيء آخر"[2].

ومعنى (دلالة اللفظ) عند ابن سينا: "أن يكون إذا ارتسم في الخيال مسموع اسم ارتسم في النفس معنى؛ فتعرف النفس أن هذا المسموع لهذا المفهوم، فكلما أورده الحس على النفس التفتت إلى معناه"[3].

ونجد لدى الإمام الغزالي في معيار العلم دراسة متعمقة في دلالة المصطلحات الأصولية والفلسفية العامة، فيشرح دلالة السبب، والمطلق والمقيد، والعام والخاص، والسلب والإيجاب، والإنشاء والخبر، والبرهان، والعلة، والحد، بما يجلّي مدلول كل مصطلح، ويمنع التباسه بغيره.

ولم يستعمل الفلاسفة من أنواع الدلالة الثلاثة (اللفظية الوضعية، واللفظية العقلية، واللفظية الطبيعية) سوى النوع الأول، وقسموه ثلاثة أقسام: (دلالة مطابقة، ودلالة تضمُّن، ودلالة التزام)، ويتضح ذلك من عبارة ابن سينا الذي يقول: "اللفظ يدل على المعنى، إما على سبيل المطابقة بأن يكون ذلك اللفظ موضوعا لذلك المعنى وبإزائه، مثل دلالة المثلث على

---

[1] انظر: معيار العلم للغزالي 109.

[1] انظر: علم الدلالة لـ د. أحمد مختار عمر، 15.

[2] انظر: كتاب الفصول الخمسة في (منطق الفارابي)، 68.

[3] انظر: كتاب العبارة من (الشفاء) لابن سينا، 4.

الشكل المحيط به ثلاثة أضلع، وإما على سبيل التضمن، بأن يكون المعنى جزء من المعنى الذي يطابقه اللفظ، مثل دلالة المثلث على (الشكل)؛ فإنه يدل على الشكل، لا على أنه اسم (الشكل) بل على أنه اسم لمعنى جزؤه الشكل، وإما على سبيل الاستتباع والالتزام بأن يكون اللفظ دالاً بالمطابقة على معنى، ويكون ذلك المعنى يلزمه معنى غيره، كالرفيق الخارجي، لا كالجزء منه، بل هو مصاحب ملازم له، مثل دلالة لفظ (السقف) على الحائط، و(الإنسان) على قابل صنعة الكتابة"[1].

والأمر نفسه عند الأصوليين الذين يمثل رأيهم الغزالي، بنحو ما أشار إليه ابن سينا آنفاً[2].

ثم يتبع ذلك البحث في تطور دلالات الألفاظ، خصوصا تلك التي تتعلق بالعبادات والشرائع الدينية، فألفاظ الصلاة، والزكاة، والحج، لم تكن لها سوى الدلالة اللغوية على الدعاء، والزيادة ، والقصد، فلما جاءت الشريعة الإسلامية أصبحت الصلاة أقوالاً وأفعالاً مخصوصة على هيئة مخصوصة، مفتتحة بالتكبير، ومختتمة بالتسليم، وأصبحت الزكاة مقدارا مستحقًّا من المال إذا بلغ النصاب وحال عليه الحول، وأصبح الحج قصداً للبيت الحرام والمشاعر المقدسة لأداء عبادة على وجه مخصوص[3].

كما تتميز المصطلحات الأصولية باعتبارات خاصة تجعلها أقرب إلى أداء المقصود الشرعي من المعنى اللغوي المجرد، فالمتواتر والمرسل والمنقطع والمرفوع والصحيح والحسن والموضوع من مصطلحات علم الحديث لها دلالات خاصة على حال الإسناد، كما هي الحال في علم الجرح والتعديل.

خاتمة:

مما مضى في ثنايا هذا البحث رأينا كيف أسهمت جهود الفلاسفة والأصوليين في خدمة اللغة العربية، وأكسبتها ثراء تطبيقيًّا ودلاليًّا بل وتقعيديًّا في بعض الأحيان، فالفيلسوف

---

(1) انظر: الإشارات والتنبيهات لابن سينا 139، وعلاقة المنطق باللغة 286–287.

(2) انظر: المستصفى من علم الأصول 30/1، والتصور اللغوي عند علماء أصول الفقه 77–78.

(3) انظر: التصور اللغوي عند علماء أصول الفقه 79.

والأصولي ابن اللغة، وصنيعتها، ولولا ما في جعبته من سهامها لما قامت به حلقات العلم ودفات الكتب، ولكان جهده مهلهلاً هزيلاً مشتتا، لا سبيل إلى اعتباره، ولا مكان له بين أعيان العلوم وقامات الفنون.

والفيلسوف الذي أولى اللغة وظواهرها جلَّ اهتمامه، فسعى إلى الكشف عن غوامضها ومبهماتها، وغاص في أعماق معانيها ودلالاتها، والأصولي الذي سخَّر فكره وعقله لاستيعاب قضايا اللغة ومسائلها، وأخذ بناصيتها لتقوم بواجبها في بيان العلم الشرعي الضروري، لن يكون كل منهما إلا جنديًّا باسلاً في حماية لغته وصيانتها، وخدمتها والسهر على رعايتها، ولن يكون إلا قائدا حكيما، يوجه فروعها وأحكامها إلى ما تتكامل به جوانب العلم البشري، وتتداعى إليه سائر أعضاء العلوم لتجعله صحيحا سليما، وتنفي عنه الزلل والخطل، وأسباب الزعزعة والفشل.

ونجد أن الفلاسفة والأصوليين قد ساروا في مركب واحد مع علماء اللغة؛ وشربوا من معينهم، ولم يخرجوا عن أفكارهم ومصطلحاتهم إلا بما هو منبثق منها، وعائدٌ في أصل دلالته إليها، فكان جهدهم امتدادا لعطاء اللغويين، ووزيرا لمؤلفاتهم؛ فإذا سألت عن القواعد والضوابط والأحكام فهي في كتب اللغويين، وإذا رمت التطبيق ودقائق التوجيه والإعراب والتفسير والتحليل وجدته في كتب الفلاسفة والأصوليين.

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-ShareAlike 4.0 International (CC BY-NC-SA 4.0)